أهمية علم التفسير

أهمية كُل علم ترتبط بأهمية موضوعه، وبالغرض من ذلك العلم، وبمدى الحاجة إليه:

* **فموضوع** علم التفسير هو كتاب الله سبحانه.

* **والغرضُ من دراسته والتَّفقه فيه** هو الاعتِصَامُ بالعُروة الوثقى من الزلل أو الشطط أو نحوهما، والاهتداء إلى الصراط المستقيم.

* **أمَّا مَدى الحاجة إلى تعلم هذا العِلم**؛ فشديدةٌ ماسةٌ؛ ذلك أن كُلَّ كمال ديني أو دنيوي مفتقر للعلم بسائر العلوم الشرعية، وهي جميعاً مفتقرةٌ إلى العلم بكتاب الله ، ومَنَاطُ العلم به هو عِلْمُ التَّفسير.

****

نشأة علم التفسير

أنزل الله تعالى كتابه بلسان عربي مبين؛ فلم يجد الذين نزل فيهم في فهمه شيئاً من عناء، ولم يكابدوا في تعرف مراميه أية مشقة؛ لنقاء ألسنتهم، وسَلَامَةِ سلائقهم، وغَلَبَةِ الفَصَاحَةِ عليهم! وإن جَهِلُوا منه شيئاً؛ سألوا عنه رَسُول الله ﷺ وهو بين ظهرانيهم؛ فيكشفُ لهم عن الوَجْهَ فيه؛ فكان العرب المسلمون أيام رَسُول الله ﷺ يلجأون إليه للسُّؤال عما غَمَضَ عليهم، وكان يردُّ على التساؤلات التي كانت تدور في خَلَدهم حول بعض ألفاظ القرآن الكريم وغيرها.

وبعد لحاق الرَّسُول ﷺ بالرفيق الأعلى؛ أستمر الحال بعده على هذا السَّنَن المستقيم؛ إذ كان النَّاسِ يتجهون إلى أهل العلم بالتفسير من أكابر الصحابة فيسألونهم عَمَّا غَمَضَ عليهم في كتاب الله تعالى؛ فيُجيبونهم الإجابات الوافية التي استقوا بعضها مما سمعوه وتعلموه من أُستاذهم الأول رَسُول الله ﷺ ، وأعملوا فكرهم مُجتهدين في بعضها الآخر بإدلاء آرائهم وفق ضوابط الشرع!

ومن هنا عُدَّت أجتهادات ابن عباس رضي الله عنهما التي رواها عنه أصحابه والآخذون عنه الباكورة الأُولى في تفسير القرآن الكريم، ولهذه التفاسير المبكّرة قيمتها العلمية والتفسيرية الكبيرة.

ولما كثرت الفتوحات الإسلامية، ودخل كثير من الناس في دين الله أفواجاً، وأختلط العرب بغيرهم، وامتزجت الألسنة؛ ظهرت حاجة المسلمين الماسة إلى تفسير ما لا يعرفون معناه من كتاب الله تعالى؛ فاجتهد التابعون رحمهُم اللهُ في تكميل هذا النقص، وأجتهد من جاءوا بعدهم في ذلك كذلك؛ حَتَّى أَنجزوا المَهَمَّةَ المُنوطة إليهم، وأدوا الأمانة الملقاة على عواتقهم، وأتموا الواجب على أحسن ما يكون التمام؛ إذ أكملوا تفسير ما يحتاج إلى تفسير في الآيات جميعها!

وبذا كان علم التفسير ولا يزال محطّ عناية العلماء وأولى أولوياتهم؛ لأنَّ هذا العلم تتأتى أهميته من

تعلقه بالقرآن الكريم، فألفت فيه عشرات الآلاف من الكتب والبحوث والرسائل قديماً وحديثاً.

يمكننا بعد هذا العرض الموجز بيانُ **جُملة العوامل الكامنة وراء نشأة هذا العلم الجليل** والفن الجميل: التفسير، وأهم الدوافع المؤدية والأسباب الداعية إلى أنبثاقه وظهوره وتبلوره، والأسرار التي وقفت وراء توافر كثير من العلماء منذُ الصَّدر الأوّل وتداعيهم وتهافتهم على العناية الفائقة به من بين سائر العلوم والفنون الأُخرى، وتضافر الجهود في التأليف وكثرة التصنيف فيه، بما يأتي:

١- **هو فهمُ القُرآن الكريم وإدراك معانيه!** وفهم القرآن لا يتأنى إلا إذا عرفنا تفسير كلماته، وقد تضمن كثيراً من الأساليب العالية والتراكيب الغامضة والألفاظ الغريبة والنوادر، وضم بين دفتيه كثيراً من الألفاظ التي أستغلقت معانيها على الفُصحاء وذوي الشَّأن من العرب الأوائل، فكيف بمن دونهم ممن جاء من بعدهم ؟! فجاءت عناية الأئمة من العلماء الغير رحمهم الله بهذا الجانب الخطير.

٢- **وُرُودُ ألفاظ قُرآنية قل أستماعها**، ولم تدر في أفواه العامة كما دارت في أفواه الخاصة؛ فكانت بعيدة المعاني، غامضة الدلالة، لا يتناولها الفهم إلا عن بُعدٍ وتكلُّفٍ ومعاناة فكر؛ ذلك أن القرآن الكريم أُنزل بلغة فُصحى تعلو عن مستوى العامة من العرب.

٣- **وُرُودُ ألفاظ قُرآنية قلَّ إدراكُ النَّاس لمعانيها الأصلية؛** إذ صاروا يستعملون كثيراً منها بمعان إسلامية جديدة، فهناك طائفةٌ من الألفاظ اللُّغوية في القرآن الكريم قد انتقلت من أُصولها اللُّغوية إلى معانٍ جديدة،

وبعد أن شاع أستعمالها في الوضع الجديد؛ نسي أصلها الأول أو تُنُوسي؛ فمست الحاجة إزاءها إلى مزيد من التفسير الإيضاح والكشف والبيان؛ كألفاظ: «الصَّلاة»، و«الزَّكاة»، و«الصوم»، و«الحج»... إلخ.

٤- **وُرُودُ ألفاظ قرآنية عديدة قد فاتت مدلولاتها العرب؛** فلم يُدرِكُوا معانيها، وخفي عليهم تأويلها؛ فسألوا عنها علماءهم وأهلَ الذِّكر منهم ! وهُمُ العرب العُرَبَاءُ، وأصْحَابُ السَّليقة السليمة واللُّغة الفُصْحَى، ومن نزلَ القُرآنُ عليهم وبلغتِهِم، فَضْلاً عن كونهم حُفَّاظاً للكتاب العزيز، وممن يعرفون القراءة والكتابة، وكونهم أقرَبَ النَّاس إلى النَّبيِّ والصقهم به

٤- **أنهم توقفوا في تفسير ألفاظ لم يعرفوا معانيها أو لم يتيقنوها**، ولم يتوصلوا إلى مصادقها ودلالاتها من لسان العرب الأُصَلَاء؛ فلم يقولوا فيها شيئاً؛ مما يدلُّ على غموض طائفة من تلك الألفاظ عليهم؛ حتّى سألوا عنها النبي ﷺ ، فاتَّضح لهم الغامض وظهر الخفي وأنجلت غُمة الإشكال، فكيف بمَنْ دُونهم ممن جاء بعدهم؟!

فإذا كان هذا في المتقدمين؛ فقد كان الأكثر منه عند المتأخرين !

٥- بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية وأمتدادها شرقاً وغرباً، وبعد أن اختلطت الأقوام نتيجةً لذلك الاتساع والامتداد، وبعد أن امتزجت المفاهيم نتيجة لفُشُوِّ اللَّحْن والعُجْمة التي اختلطت بالفصاحة، **ظهرت حاجة المسلمين الشَّديدة إلى تفسير ما لا يعرفون معناه من كتاب الله**، فاجتهد العلماء في ذلك؛ حتَّى أكملوا تفسير ما يحتاج إلى تفسير في الآيات جميعها؛ حراسةً لهذا الدين، وحفاظاً على القُرآن الكريم من أن يقتحمه خطأ في النُّطق أو الفهم، وحراسة للعربية التي عدت لغة الوحي الحكيم من أن يتقدَّم حَرَمَها دخيل لا ترضى عنه العربية، وصيانةً لهذه الثّروة التفسيرية المحفوظة بين طيَّات صُدورهم من الضَّياع بموت العلماء ومن يُحتج بعِلْمِهم ولغتهم !